جزء مقرر عقيدة ٣

(عقد ٣٦٣)

الفصل (٣٩٢)

قسم الدراسات الإسلامية

رقم الشعبة: ١٣٥٧٧

رقم ورمز المقرر (اللغة العربية)	رقم ورمز المقرر (اللغة الإنجليزية)	اسم المقرر	توزيع الوحدات الدراسية				المتطلب	نوع المتطلب
			نظري	عملي	تدريب	المعتمد		
٣٦٣ عقد	AGDH 363	عقيدة (٣)	٣	–	–	٣	–	–

أهداف المقرر:

١. بيان حقيقة الإيمان بالقدر .

٢– معرفة مفهوم الإيمان والإسلام ، وتضمن الإيمان للعمل .

٣– بيان لوازم الإسلام ونواقضه ، والتحذير من التسرع في التكفير لخطورته .

٤– غرس خلق التسليم لله والرضا بالقدر لدى الطالب وتقدير أهمية الفاعلية في عمارة الأرض .

محتوى المقرر:

- الإيمان بالقدر، ومسائل متعلقة بباب القدر: كالحكمة والتعليل، والهدى والضلال، وعلاقة الأسباب بالقدر ، والرد على الطوائف المنحرفة في باب القدر...
- الإيمان والإسلام معناهما، والعلاقة بينهما، ودخول العمل في مسمى الإيمان، ومفهوم الكبيرة، وحكم مرتكبها؛ والرد على المخالفين، ومفهوم الكفر، وأنواعه.
- ضوابط التكفير، وشروطه وموانعه، ومفهوم الولاء والبراء في الإسلام وما يتعلق به من مسائل.
- لزوم الجماعة، والتحذير من التفرق والاختلاف، و وحقوق ولاة الأمر.

الكتاب المقرر:

شرح العقيدة الطحاوية، للشيخ ابن أبي العز الحنفي.

المراجع:

١– شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، للإمام ابن القيم .

٢–كتاب الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية .

قصة في الإيمان بالقدر

أورد الكاتب المشهور (ديل كارنيجي) في كتابه الذائع الصيت: (دع القلق وابدأ الحياة) _مقالة بعنوان: (عشت في جنة الله) للكاتب المشهور (ر. ن. س. بودلي) الذي ألف كتابَي: (رياح على الصحراء) و(الرسول) وأربعة عشر كتاباً.

يقول (بودلي): «في عالم ١٩١٨م وليت ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، وأتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى أنني ألفت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه (الرسول) وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرُّحل من أمتع سني عمري، وأحفلها بالسلام، والاطمئنان، والرضا بالحياة.

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق؛

فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هَيِّناً، فهم لا يتعجلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقاً على أمر.

إنهم يؤمنون بأن ما قُدِّر يكون، وأن الفرد منهم لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا».

ثم أردف قائلاً: «ودعني أضرب لك مثالاً لما أعنيه: هَبَّت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي (الرون) في فرنسا، وكانت عاصفة حارةً شديدة الحرارة، حتى أحسست أن شعر رأسي يتزعزع من منابته؛ لفرط الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون.

ولكنَّ العرب لم يشكوا إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة: (قضاء ومكتوب).

لكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط

كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء.

فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى.

قال رئيس القبيلة ـ الشيخ ـ: لم نفقد الشيء الكبير؛ فقد كنا خليقين أن نفقد كل شيء، ولكن حمداً لله وشكراً؛ فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وباستطاعتنا أن نبدأ العمل من جديد».

ثم قال بودلي: «وثمة حادثة أخرى، فلقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً، وانفجر أحد الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي، وتولاني الغضب، وانتابني القلق والهم، وسألت صحبي من الأعراب: ماذا عسى أن نفعل؟

فذكروني أن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق.

ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، ولكنها ما لبثت أن كفت عن السير، وعلمت أن

البنزين قد نفد.

وهنالك _أيضاً_ لم تثر ثائرة أحدٍ من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوؤهم، بل مضوا يذرعون الطريق سيراً على الأقدام. »

وبعد أن استعرض بودلي تجربته مع عرب الصحراء علق قائلاً: «قد أقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرُّحل _أنَّ الملتاثين، ومرضى النفوس، والسِّكِّرين الذين تحفل بهم أمريكا وأوربا ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها.

وإنني لم أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة، والقناعة، والرضا. »

وأخيراً ختم كلامه بقول: «وخلاصة القول: أنني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء _مازلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال، والسكينة.

ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلف المسكنات والعقاقير الطبية. »

وبعد أن قرأت هذه القصة، إليك أيها القارئ تفصيلاً ميسراً موجزاً عن الإيمان بالقدر وبعض مسائله، وثمراته وغير ذلك في الصفحات التالية.

تعريف الإيمان بالقدر ومراتبه

أولا: تعريف الإيمان بالقدر: يمكن أن يعرف بأحد التعريفات التالية:

ا ـ هو تقدير الله للكائنات حسب ما سبق به علمه، واقتضته حكمته.

ب ـ هو علم الله المحيط، وكتابته، ومشيئته وخلقه لكل شيء.

ثانياً: مراتب القدر وأركانه: من خلال ما مضى يتبين لنا أن القدر يقوم على مراتب أربع تسمى أركان القدر أو مراتبه.

وهذه الأركان هي المدخل لفهم باب القدر، ولا يتم الإيمان به إلا بتحقيقها كلها، وهي:

المرتبة الأولى: العلم: وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملةً وتفصيلاً ماضياً ومستقبلاً، سواء كان ذلك مما

يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده، أو بما يجري في الكون؛ فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لوكان كيف يكون.

كما أنه يعلم خلقه قبل أن يخلقهم، ويعلم أرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وجميع حركاتهم وسكناتهم.

والأدلة على هذا المرتبة كثيرة جداً، قال الله ـتعالىـ: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ سبأ: ٣.

المرتبة الثانية: الكتابة: وهي الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ.

قال الله ـتعالىـ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحج: ٧٠.

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـرضي الله عنهماـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.»

وقال ﷺ : «ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار ، إلا وكتبت شقية أوسعيدة» رواه مسلم.

المرتبة الثالثة: المشيئة: وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة؛ فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا حركة ولا سكون ولا هداية ، ولا إضلال إلا بمشيئته.

قال الله ـعزوجلـ : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ القصص : ٦٨.

وقال : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التكوير : ٢٩.

وقال النبيﷺ : «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد يصرفها حيث يشاء» رواه مسلم.

المرتبة الرابعة: الخلق: وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة بذواتها وصفاتها ، وحركاتها ، وأفعالها ، وبأن كل من سوى الله مخلوق مُوْجَد من العدم ، كائن بعد أنْ لم يكن.

والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جداً، منها قول الله ـتعالىـ :
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور ﴾ الأنعام : ١.

وقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ الملك : ٢.

ومما يدخل في هذه المرتبة أفعال العباد؛ فهي داخلة في عموم خلقه ـعز وجلـ فهي من الله خلقاً وإيجاداً وتقديراً، وهي من العباد فِعلاً وكسباً، فالله هو الخالق لأفعالهم، وهم الفاعلون لها.

قال الله ـتعالىـ : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الرعد : ١٦.

هذه هي مراتب القدر التي لا يتم الإيمان بالقدر إلا بها.

أقسام التقدير

ينقسم التقدير الإلهي باعتبار عمومه وخصوصه إلى أربعة أقسام.

١ـ **التقدير العام:** وهو تقدير الرب لجميع الكائنات بمعنى علمه بها وكتابته لها.

ويدل على هذا النوع أدلته كثيرة، منها قوله ـتعالىـ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحج: ٧٠.

وقال النبي ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.» رواه مسلم.

٢ـ **التقدير العمري:** وهو تقدير كل ما يجري على العبد في حياته إلى نهاية أجله، وكتابةُ شقاوته أو سعادته.

وقد دل على ذلك قول النبي ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويؤمر

بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وشقي أو سعيد.» رواه البخاري ومسلم.

٣ـ التقدير السنوي: وذلك في ليلة القدر من كل سنة، ويدل عليه قوله ـتعالىـ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ الدخان :٤.

وقوله ـعز وجلـ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴿ ٤ ﴾ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴿ ٥ ﴾ القدر :٥.

قيل في تفسرها: يكتب فيها ـأي في ليلة القدرـ ما يحدث في السنة من موت، وحياة، وعز، وذل، ورزق، ومطر حتى الحجاج يقال: يحج فلان، ويحج فلان.

٤. التقدير اليومي: ويدل عليه قول الله ـتعالىـ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن: ٢٩.

قيل في تفسيرها: شأنه أن يعز ويذل، ويرفع ويخفض، ويعطي ويمنع، ويغني ويُفقر، ويضحك ويبكي، ويميت ويحيي إلى غير ذلك.

أدلة الإيمان بالقدر

دل على هذا الركن العظيم من أركان الإيمان _الكتاب، والسنة، والإجماع، والفطرة، والعقل، والحس.

أما أدلة القرآن الكريم: فكثيرة جداً وقد مر شيء من ذلك، ومن تلك الأدلة _زيادة على ما مضى_ قوله _تعالى_: ﴿ وكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً ﴾ الأحزاب: ٣٨، وقوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر: ٤٩، وقوله: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ الحجر: ٢١.

وأما السنة: فكما قال ﷺ كما في حديث جبريل _عليه السلام_: «وتؤمن بالقدر خيره وشره.» رواه مسلم.

وروى مسلم _أيضاً_ عن طاووس قال: «أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبدالله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكيْس، أو الكيس والعجز.»

وقال ﷺ: «وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان

كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ اللهِ وما شاء فعل» رواه مسلم.

أما الإجماع: فقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله، قال النووي رحمه الله: «وقد تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة، وأهل الحل والعقد من السلف والخلف _على إثبات قدر الله _سبحانه وتعالى_.»

وقال ابن حجر رحمه الله: «ومذهب السف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله _تعالى_.»

أما الفطرة: فإن الإيمان بالقدر أمر معلوم بالفطرة قديماً وحديثاً، ولم ينكره إلا الشواذ من المشركين من الأمم، ولم يقع الخطأ في نفي القدر وإنكاره، وإنما وقع في فهمه على الوجه الصحيح؛ ولهذا قال _سبحانه_ من المشركين ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا﴾ الأنعام: ١٤٨، فهم أثبتوا المشيئة لله، ولكنهم احتجوا بها على الشرك، ثم بيَّن الله أن هذا هو شأنُ من كان قبلهم، فقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الأنعام: ١٤٨.

وكانت العرب في الجاهلية تعرف القدر ولا تنكره، ولم

يكن هناك من يرى أن الأمر مستأنف.

ولم يقل أحد منهم بنفيه إطلاقاً، كما صرح بذلك أحد كبار علماء العربية، وهو العباس أحمد بن يحيى ثعلب رحمه الله بقوله: «لا اعلم عربياً قدرياً، قيل له: يقع في قلوب العرب القول بالقدر؟ قال: معاذ الله، ما في العرب إلا مثبت القدر خيره وشره أهل الجاهلية والإسلام، وكلامهم كثير بيِّن».

أما أدلة العقل: فهي أن العقل الصحيح يقطع بأن الله هو خالق هذا الكون، ومدبره، ومالكه، ولا يمكن أن يوجد على هذا النظام البديع، التناسق التآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب والمسببات هكذا صدفة؛ إذ الموجود صدفة ليس له نظام في أصل وجوده، فكيف يكون منتظماً بقائه وتطوره؟

فإذا تقرر عقلاً أن الله هو الخالق لزم ألا يقع شيء في ملكه إلا ما قد شاءه وقدَّره.

ومما يدل على هذا التقرير قوله ـتعالىـ: ﴿ الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاواتٍ ومِنَ الأَرْض مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِ شَيءٍ قدِيرٌ وأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلما ﴾ الطلاق ١٢.

ثم إن تفاصيل القدر لا ينكرها العقل، بل هي مما يتفق معه تمام الاتفاق، كما سيمر بنا قريباً.

أما دلالة الحس: فنحن نشاهد ونسمع، ونقرأ أن الناس تستقيم أمورهم بالإيمان بالقضاء والقدر، وقد مرَّ شيء من ذلك عند الحديث عن ثمرات الإيمان بالقدر، فالمؤمنون به حقاً هم أسعد الناس وأصبرهم، وأشجعهم، وأكرمهم، وأكملهم، وأعقلهم.

ثم إن القدر «هو نظام التوحيد» كما قال ابن عباس _رضي الله عنهما_، والتوحيد لا يستقيم إلا بالإيمان بالقضاء والقدر.

ولعل فيما سيمر في آخر هذا الكتاب من قصص لأناس انحرفوا في باب القدر شاهداً على ذلك.

ثم إن فيما أخبرنا الله ورسوله ﷺ من أمور الغيب المستقبلية التي وقعت، كما جاء الخبر _دليلاً حسياً واضحاً على أن الإيمان بالقدر حق وصدق.

ما الواجب على الإنسان في باب القدر؟

الواجب على الإنسان في هذا الباب أن يؤمن بقضاء الله، وقدره، وأن يؤمن بشرع الله، وأمره ونهيه، فعليه تصديق الخبر، وطاعة الأمر.

فإذا أحسن حَمِدَ الله، وإذا أساء استغفر الله، وعلم أن ذلك كله بقضاء الله وقدره؛ فإن آدم -عليه السلام- لَمَّا أذنب تاب، فاجتباه ربه وهداه، وإبليس أصرَّ واحتج بالقدر فلعنه الله وأقصاه، فمن تاب كان آدمياً، ومن أصرَّ واحتجَّ بالقدر صار إبليسياً، فالسعداء يتبعون أباهم آدم، والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس.

وبالجملة فعلى الإنسان أن يؤمن بمراتب القدر الأربع السابقة؛ وأنه لا يقع شيء إلا وقد علمه الله، وكتبه، وشاءه، وخلقه، ويؤمن -أيضاً- بأن الله أمر بطاعته، ونهى عن معصيته، فيفعل الطاعة، ويترك المعصية، فإذا وفقه الله لفعل الطاعة وترك المعصية فليحمدِ الله، وليستمر على ذلك، وإن خُذِل

ووُكل إلى نفسه فَفَعل المعصية، وترك الطاعة فعليه أن يستغفر ويتوب.

ثم إن على العبد _أيضاً_ أن يسعى في مصالحه الدنيوية، ويسلك الطرق الصحيحة الموصلة إليها، فيضرب في الأرض، ويمشي في مناكبها، فإن أتت الأمور على ما يريد حمد الله، وإن أتت على خلاف ما يريد تعزى بقدر الله، وعلم أن ذلك كله واقع بقدر الله _عز وجل_ وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وإذا علم العبد من حيث الجملة أن لله فيما خلق وما أمر به حكمة عظيمة كفاه هذا، ثم كلما ازداد علماً وإيماناً ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله، ويبين له تصديق ما أخبر الله به في كتابه.

ولا يلزم كل أحد أن يعلم تفاصيل الحديث عن الإيمان بالقدر، بل يكفي هذا الإيمان المجمل.

وهو _ولله الحمد_ مقتضى الأدلة الشرعية، والفطرية، والعقلية، والحسية، لا تناقض فيه، ولا لبس.

هل الإيمان بالقدر ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية؟

الإيمان بالقدر _ على ما مرَّ _ لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية، وأن يكون له قدرة عليها، فقد دل على ذلك الشرع والواقع.

أما الشرع: فالأدلة على ذلك كثيرة جداً ومنها قوله _تعالى_: ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً ﴾ النبأ: ٣٩، وقوله: ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ البقرة: ٢٢٣.

أما الواقع: فكل إنسان يعلم أن له مشيئةً، وقدرة يفعل بها ويترك، ويفرق بين ما يقع بإرادته، كالمشي، وما يقع بغير إرادته كالارتعاش.

لكنَّ مشيئته، وقدرته واقعتان بمشيئة الله وقدرته، لقوله _تعالى_: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿ ٢٨ ﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿ ٢٩ ﴾ التكوير.

هل فعل الأسباب ينافِي الإيمان بالقضاء والقدر؟

فعل الأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر، بل إن مباشرتها من تمام الإيمان بالقضاء والقدر.

ولهذا يجب على الإنسان ـمع الإيمان بالقدرـ الاجتهادُ في العمل، والأخذ بأسباب النجاة، والالتجاء إلى الله ـتعالىـ بأن ييسر له أسباب السعادة وأن يعينه عليها.

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شؤون الحياة؛ فقد أَمَرتْ بالعمل، والسعي في طلب الرزق، واتخاذ العدد لمواجهة الأعداء، والتزود للأسفار، وغير ذلك.

قال ـتعالىـ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ الجمعة:١٠، وقال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ الملك: ١٥، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الأنفال:٦٠، وأمر المسافرين للحج بالتزود، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ

التَّقْوَى ﴾ البقرة: ١٩٧ ، وأمر بالدعاء والاستعانة، فقال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ غافر: ٦٠ ، وقال: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾ البقرة: ٤٥.

وأمر باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوانه، وجنته، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغير ذلك.

وحياة الرسول ﷺ وأصحابه، بل حياة المسلمين جميعاً، والسائرين على نهجهم _كلها شاهدة على أخذهم بالأسباب، والجد، والاجتهاد.

هل الإيمان بالقدر يمنح العاصي حجةً على ترك الواجبات أو فعل المعاصي؟

الإيمان بالقدر لا يمنح العاصي حجة على ترك الواجبات، أو فعل المعاصي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتِّفاق المسلمين، وسائر أهل الملل، وسائر العقلاء؛ فإن هذا لو كان مقبولاً لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس، وأخذ الأموال وسائر أنواع الفساد في الأرض، ويحتج بالقدر.

ونفَّسُ المحتجِّ بالقدر إذا اعتُدي عليه، واحتج المعتدي بالقدر لم يُقْبَل منه، بل يتناقض، وتناقض القول يدل على فساده، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بداية العقول».

ومما يؤيد ما ذكر ويؤكده أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه في أمور دنياه حتى يدركه، ولا يعدل عنه إلى ما لا يلائمه ثم يحتج على عدوله بالقدر.

فلِمَا ذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج

بالقدر؟!

وإليك مثالاً يوضح ذلك: لو أراد إنسان السفر إلى بلد، وهذا البلد له طريقان، أحدهما آمن مطمئن، والآخر كله فوضى واضطراب، وقتل، وسلب، فأيهما سيسلك؟

لا شك أنه سيسلك الطريق الأول، فلماذا لا يسلك في أمر الآخرة طريق الجنة دون طريق النار؟

ومما يمكن أن يردُّ به على المحتج بالقدر على ترك الواجبات، وفعل المعاصي _بناء على مذهبه_ أن يقال له: لا تتزوج؛ فإن كان الله قد قضى لك بوَلد فسيأتيك، وإلا فلن، ولا تأكل ولا تشرب؛ فإن قدَّر الله لك شبعاً ورياً فسيكون، وإلا فلن، وإذا هاجمك أسد ضارٍ فلا تفر منه؛ فإن قدَّر الله لك النجاة فستنجو، وإن لم يقدرها لك فلن ينفعك الفرار، وإذا مَرِضْت فلا تتداوَ؛ فإن قدَّر الله لك شِفاءً شُفيت، وإلا فلن ينفعك الدواء، وهكذا...

فهل سيوافقنا على هذا القول أَوْ لا؟ إن وافقنا عَلِمْنا فساد عقله، وإن خالفنا علمنا فساد قوله، وبطلان حجته.

وبالجملة فإن الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي، أو

ترك الطاعات احتجاج باطل في الشرع، والعقل، والواقع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن المحتجِّين بالقدر: «هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى.»

متى يسوغ الاحتجاج بالقدر؟

يسوغ الاحتجاج بالقدر عند المصائب التي تحل بالإنسان كالفقر، والمرض، وفقد القريب، وتلف الزرع، وخسارة المال، وقتل الخطأ، ونحو ذلك؛ فهذا من تمام الرضا بالله ربًّاً، فالاحتجاج إنما يكون على المصائب، لا المعائب، فالسعيد يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، كما قال _تعالى_: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ غافر: ٥٥.

والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب.

ويوضح ذلك المثال الآتي: لو أن رجلاً قتل آخر عن طريق الخطأ، ثم لامه من لامه، واحتج القاتل بالقدر، لكان احتجاجه مقبولاً، ولا يمنع ذلك من أن يؤاخذ.

ولو قتل رجلٌ رجلاً عن طريق العمد ثم قُرِّع القاتل ووُبِّخ على ذلك، ثم احتج بالقدر، لم يكن الاحتجاج منه مقبولاً.

هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟

هذا السؤال يرد كثيراً، وهناك ما يجيب على هذا السؤال بأن الإنسان مسير لا مخير، كما أن هناك من يجيب بأنه مخير لا مُسَيَّر.

والحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال بهذا الإطلاق خطأ؛ ذلك أن الإجابة تحتاج إلى بعض التفصيل.

ووجه الخطأ في الإجابة: « بأن الإنسان مسير لا مخير» تكمن فيما يَرِدُ على هذه الإجابة من إشكال؛ فإذا قيل: إنه مسير بإطلاق قيل: كيف يحاسب وهو مسير؟ وكيف يكون مسيراً ونحن نرى أن له مشيئةً وقدرةً واختياراً؟ وما العمل بالنصوص التي تثبت له المشيئة، والقدرة، والاختيار؟

أما إذا أجيب بأنه «مخير لا مسير» فيقال: كيف يكون مُخَيَّراً ونحن نرى أنه قد ولد بغير اختياره؟ ويمرض بغير اختياره؟ ويموت بغير اختياره؟ إلى غير ذلك من الأمور الخارجة عن إرادته.

فإذا قيل: إنه «مخير في أفعاله التي تقع بإرادته واختياره» قيل: وأفعاله الختيارية كذلك؛ فقد يريد أمراً، ويعزم على فعله، وهو قادر على ذلك فيفعله، وقد لا يفعله؛ فقد يعوقه ما يعوقه؛ إذاً فليس كل ما أراد فِعْلَه فَعَلَهُ؛ وهذا شيء مشاهد.

ومن هنا يتبين لنا وجه الخطأ في هذا الجواب؛ فلو كان الإنسان مُسَيَّراً بإطلاق لما كان له قدرةٌ ومشيئةٌ، ولو كان مخيراً بإطلاق لفعل كل ما شاءه؛ فمن قال بالتسيير بإطلاق فهو ألصق بمذهب الجبرية الذين قالوا إنَّ العبد مجبور على فعله، وأنكروا أن يكون له قدرة ومشيئة وفعل.

ومن قال بالتخيير بإطلاق فهو ألصق بمذهب القدرية النفاة الذين قالوا: بأن الأمر أُنُفٌ، وأن العبد هو خالق فعله، وأنه مستقل بالإرادة والفعل.

فما الجواب _إذاً_ عن هذا السؤال؟ وما المخرج من هذا الإشكال؟

الجواب: أن الحق وسط بين القولين، وهدى بين هاتين الضلالتين؛ فيقال _وبالله التوفيق_: إن الإنسان مخيَّر باعتبار، ومسيَّر باعتبار؛ فهو مخير باعتبار أن له مشيئةً يختار بها، وقدرة

يفعل بها؛ لقوله ـ تعالى ـ ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف: ٢٩، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد: ١٠، وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ البقرة: ٢٢٣، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ آل عمران: ١٣٣.

ولقوله ﷺ فيما رواه مسلم: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز...» الحديث.

وقوله في الحديث الذي رواه البخاري: «صلوا قبل المغرب» قال في الثالثة: «لمن شاء»، إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة في هذا المعنى.

وهو مسير باعتبار أنه في جميع أفعاله داخل القدر، راجع إليه؛ لكونه لا يخرج عما قدَّره الله له؛ فلا يخرج في تخيير عن قدرة الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يونس: ٢٢، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ القصص: ٦٨.

ولقوله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة».

إلى غير ذلك من الأدلة بهذا المعنى.

ولهذا جمع الله بين هذين الأمرين ـكون الإنسان مخيراً باعتبار ومسيراً باعتبار ـكما في قوله ـتعالى ـ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ التكوير.

فأثبت ـعز وجل ـ أن للعبد مشيئة، وبيَّن أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، واقعة بها.

وكذلك الرسول ﷺ كما في قوله: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار».

قالوا: يا رسول الله: فَلِمَ نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

فهذا الحديث دليل لما سبق، فهو يدل على أن الإنسان مخير؛ لقول ﷺ «اعملوا» وعلى أنه لا يخرج في تخييره عن قدر الله؛ لقوله: «فكل ميسر لما خلق له».

هذا مقتضى أدلة الشرع والواقع في هذه المسألة.

فلعل في هذا التقرير إجابة شافية، وجمعاً بين النصوص في هذه المسألة.

كيف نوفق بين استئثار الله بعلم ما في الأرحام وبين علم الأطباء بذكورة الجنين في الرحم من أنوثته؟

والجواب عن هذا الإشكال يسير بحمد الله، وقبل الدخول في ثنايا الإجابة لابد من تبيان مسألة مهمة، ألا وهي: أنه لا يمكن أن يتعارض صريح القرآن الكريم مع الواقع أبداً، وأنه إذا ظهر في الواقع ما ظاهره المعارضة فإما أن يكون الواقع مجرد دعوى لا حقيقة له، وإما أن يكون القرآن الكريم غير صريح في معارضته؛ لأن صريح القرآن الكريم، وحقيقة الواقع كلاهما قطعي، ولا يمكن تعارض القطعيين أبداً.

وهذا ما قرره العلماء في القديم والحديث، بل إن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بنى كتابه العظيم (درء تعارض العقل والنقل) على هذه القاعدة.

ولقد صرح بذلك كثير من الكتاب الغربيين المنصفين، ومنهم الكاتب الفرنسي (موريس بوكاي) كما في كتابه (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)؛ حيث بين في هذا الكتاب أن التوراة المحرَّفة، والإنجيل المحرَّف الموجودين اليوم يتعارضان مع الحقائق

العلمية، في الوقت الذي سجل فيه هذا الكاتب شهادات تَفوُّق للقرآن الكريم سبق بها القرآنُ العلمَ الحديث.

وأثبت من خلال ذلك أن القرآن لا يتعارض أبداً مع الحقائق العلمية، بل إنه يتفق معها تمام الاتفاق.

وإذا تقرر ذلك نأتي إلى حل ذلك الإشكال فيقال:

١_ أن اختصاص علم الله _تعالى_ بما في الأرحام لا يقتصر على علمه بما فيها من ذكر أو أنثى فحسب، بل هو أعم من ذلك؛ فيشمل ما في الرحم في كل لحظة وفي كل طور، من فيض وغيض وحمل، وحتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم، ويشمل العلم بملامح الجنين، وخواصه، واستعداداته.

ويشمل _أيضاً_ العلم برزقه هل هو قليل أو كثير؟ وصفة ذلك الرزق هل هو حرام أو حلال؟ ويشمل العلم بأجله أقصير هو أم طويل؟ ويشمل العلم بعمله هل هو صحيح أو فاسد؟ ويشمل العلم بشقاوته من سعادته.

فهذا من علم ما في الأرحام، وهو مما اختص الله _تبارك وتعالى_ بعلمه، فلا يُظهر عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول أو ملك أو غيرهما.

وليس في قوله ـتعالىـ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ لقمان: ٣٤ تصريح بذكر العلم بالذكورة والأنوثة، وكذلك لم تأت السنة بذلك. »

٢ـ أما معرفة ما في الرحم هل هو ذكر أو أنثى فإنه لا يعلم إلا بعد تخليق الجنين.

أما المدة التي لم يُخَلَّق فيها الجنين فلا يعلم أحد فيها ذكورة الجنين من أنوثته؛ لأن ذلك من علم الغيب.

وقد اتفق العلماء على أن نفخ الروح لا يكون إلا بعد أربعة أشهر.

ونفخ الروح في الجنين لا يكون إلا بعد تمام صورته، أي بعد تخليقه.

وبعد تخليقه لا يكون العلم بذكوريته أو أنوثيته من علم الغيب؛ لأنه بتخليقه صار من علم الشهادة، إلا أنه مستتر في الظلمات التي لو أزيلت لتبين أمره.

ولا يبعد أن يكون فيما خلق الله ـتعالىـ من الأشعة أشعة قوية تخترق الظلمات حتى تبين الجنين ذكراً أو أنثى.

ولذلك فلا غرابة أن يعرف الجنين بعد أن يتخلق من خلال

الأشعة الصوتية؛ فهذا من علم الشهادة، ومن العلم بظاهر من الحياة الدنيا، والله ـعز وجلـ لم ينف ذلك عن البشر، بل أثبته لهم كما في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الروم: ٧.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية لقمان: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴿٣٤﴾ «وكذلك لا يعلم مما يريد أن يخلقه ـتعالىـ سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء من خلقه.»

فهذا مقتضى دلالة الشرع والواقع.

أما دلالة الشرع فكما جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وكَّل الله بالرحم ملكاً يقول: أي ربِّ! مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقاً قال: يارب!، أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب ذلك في بطن أمه.»

أما دلالة الواقع فكما مر من أن الجنين يعرف بعد أن يُخَلَّق عن طريق الأشعة الصوتية.

هل الشر ينسب إلى الله _ عز وجل _؟

الشر لا ينسب إلى الله _ سبحانه _ فهو منزه عن الشر، ولا يفعل إلا الخير، والقدر من حيث نسبتُه إلى الله لا شر فيه بوجه من الوجوه؛ فإن علم الله، وكتابته، ومشيئته، وخلقه، وذلك خيرٌ محضٌ؛ فالشر إنما هو في المقضي لا في القضاء، وفي مفعولات الله لا في أفعاله _ عز وجل_.

ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يثني على ربه بتنزيهه عن الشر بدعاء الاستفتاح بقوله: «لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك.»

هل لله حكمة فيما يقدره ويقضيه؟

نعم لله ـعز وجلـ الحكمة البالغة في كل فعل من أفعاله، وقد تظهر لنا الحكمةُ، وقد تخفى، ولا يلزم أن ندرك حكمته ـعز وجلـ في كل شيء، أو أن يدرك ذلك كل أحد.

وإليك مثالاً يسيراً ألا وهو خلق المصائب والآلام؛ فكثير من الناس لا يدرك الحكمة من ذلك مع أن فيه حكماً عظيمة كثيرة منها حصول الأجر، وتكفير السيئات، وتقوية المبتلى، وزيادة إيمانه، وحصول الإخلاص، وحصول رحمة أهل البلاء، والسلامة من الغرور والكبر، ومعرفة قدر العافية، والعلم بحقارة الدنيا، إلى غير ذلك من الحكم.

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة في الفقرة التالية عند الحديث عن ثمرات الإيمان بالقدر.

ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر ـ على الوجه الصحيح ـ يثمر ثمراتٍ جليلة، وأخلاقاً جميلة، وعبودياتٍ متنوعة، يعود أثرها على الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة، فمن تلك الثمرات ما يلي:

١ ـ أداء عبادة الله ـ عز وجل ـ: فالإيمان بالقدر مما تَعَبَّدنا الله به، وكمال المخلوق في تحقيقه العبودية لربه، وكلما ازداد تحقيقاً للعبودية ازداد كمالُه، وعلت درجتُه، وكان كلُّ ما يجري عليه مما يكرهه خيراً له، وحصل له من جَرَّاء ذلك الإيمانِ عبودياتٌ كثيرة، سيأتي ذكرٌ لشيء منها.

٢ ـ الإخلاص: فالإيمان بالقدر يحمل صاحبه على الإخلاص، فيكون الباعث له في جميع أعماله امتثال أمر الله؛ ذلك أن المؤمن بالقدر يعلم أن الأمر أمر الله، وأن الملك ملكه، وأن ما شاءه الله كان، وما لم يشأه لم يكن، لا راد لفضله، ولا معقب لحكمه، فيقوده ذلك إلى إخلاص العمل لله، وتصفيته من كل شائبة تشوبه،؛ لأن الحامل على عدم

الإخلاص أو قِلَّته مراءاةُ الناس، أو طلب التزيُّن في قلوبهم، أو طلب مدحهم والهرب من ذمهم، أو طلب أموالهم أو خدمتهم أو محبتهم، أو نحو ذلك من الشوائب والعلل التي يجمعها إرادة ما سوى الله في العمل.

فإذا أيقن العبد أن هذه الأمور لا تُنال إلا بتقدير الله _عز وجل_ وأن الناس ليس لهم من الأمر شيء في أنفسهم ولا في غيرهم _ لم يعد يبالي بالناس، ولم يَسْعَ إلى إرضائهم بسخط الله، فينقاد إلى إيثار الحق على الخلق، وإلى الإخلاص والتفريد، بعيداً عن كل رياء وتنديد.

٣_ **التوكل**: فالتوكل على الله هو لُبُّ العبادة، ولا يصح التوكل ولا يستقيم إلا لمن آمن باقدر على الوجه الصحيح.

قال ابن القيم رحمه الله: «قال شيخنا _يعني ابن تيمية رحمه الله_: ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف، ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون من ملكه ما يشاء، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.»

والتوكل في لسان الشرع إنما يراد به توجه القلب إلى الله

حال العمل، واستمداد المعونة منه، والاعتماد عليه وحده، فذلك سر التوكل وحقيقته.

والشريعة أمرت العامل بأن يكون قلبه مطوياً على سراج التوكل والتفويض.

والذي يحقق التوكل هو القيام بالأسباب المأمور بها؛ فمن عَطَّلها لم يصحَّ توكله.

فإذا توكل العبد على ربه، وسلَّم له، وفوض إليه أمره أمده الله بالقوة، والعزيمة، والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عُرضَةُ اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

٤ـ **الخوف من الله**: فالمؤمن بالقدر تجده دائماً على خوفٍ من الله، وعلى حذر من سوء الخاتمة؛ إذ لا يدري ما يُفعل به، ولا يأمن مكر الله.

ومن هنا يستقل عمله، ولا يغتر به مهما كان؛ فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبهما حيثُ شاء، والخواتيم علمهما عند الله ـعز وجلـ.

٥ـ **قوة الرجاء وإحسان الظن بالله**: فالمؤمن بالقدر

حَسَنُ الظن بالله، قويُّ الرجاء به؛ لعلمه بأن الله لا يقضي قضاءً إلا وفيه تمام العدل والرحمة والحكمة.

فلا يتهم ربه فيما يجريه عليه من أقضية وأقدار، وذلك يوجب له استواء الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له سيده، كما يوجب له انتظار الفرج وترقبه، وذلك يخفف حمله المشقة، ولا سيما مع قوة الرجاء أو القطع بالفرج؛ فإنه يجد في حشو البلاء من رَوْح الفرج ونسيمه وراحته ما هو من خفي الألطاف، وما هو فرج مُعَجَّل.

٦ـ **الصبر وقوة الاحتمال:** فالإيمان بالقدر يثمر لصاحبه عبودية الصبر على الأقدار المؤلمةِ، والصبرُ من جميل الخلال، ومن محمود الخصال، له فوائده الجمَّة، وعوائده الكريمة، وله عواقبه الجميلة، وآثاره الحميدة.

وكل أحد من الناس لابد له من الصبر على بعض ما يكره، إما اختياراً وإما اضطراراً؛ فالكريم يصبر اختياراً؛ لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يُحمد عليه، ويُذَمُّ على العجز، وأنه إن لم يصبر لم يردَّ عليه الجزعُ فائتاً، ولم ينتزع من مكروهاً؛ فمن لم يصبر صَبْر الكرام سلا سلوَّ البهائم.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : «وجدنا خير عيشنا بالصبر.»

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ : «الصبر مطية لا تكبوا.»

وقال الحسن رحمه الله : «الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده.»

وصدق من قال :

والصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقته لكنْ عواقبُه أحلى من العسل

ولهذا تجد المؤمن بالقدر صبوراً متجلداً، ويتحمل المشاق، ويقوم بالأعباء.

بخلاف ضعيف الإيمان بالقدر، الذي لا يقوى على احتمال، ولا يصبر على أدنى شيء يعترضه؛ بسبب ضعف إيمانه، ورخاوة نفسه، وانزعاجها العظيم للشيء الحقير؛ فما إنْ يصاب بالتافه من الأمر حتى تراه حَرِج الصدر، لهيف القلب، كاسف الوجه، ناكس البصر، تتناجى الهموم في صدره فتقض مضجعه، وتؤرق جفنه، وهي وأكبر منها لو حدثت لمن هو أقوى منه إيماناً واحتمالاً _لم يُلقِ لها بالاً، ولم

تحرك منه نفساً، ولَنَامَ ملء جفونه، رضيَّ البال، قرير العين.

فالذين لا يؤمنون بالقدر يجزعون لأتفه الأسباب، بل ربما أدى بهم الجزع إلى الجنون، والوسوسة، وتعاطي المخدرات، وقتل النفس.

ولذلك يكثر الانتحار في البلاد التي لا يؤمن أهلها بالقضاء والقدر، كأمريكا، والسويد، والنرويج، وغيرها، بل لقد وصل الأمر ببعض البلاد إلى فتح مستشفيات للانتحار، والعجيب في الأمر أن يكون للانتحار أنصار يؤيدون حق الراغبين بذلك، ويسعون في تقديم الطرق المناسبة اليسيرة غير المؤلمة.

ولو بحثنا عن أسباب انتحارهم لوجدناها تافهةً جداً، لا تستدعي سوى التغافل وغض البصر عنها؛ فبعضهم ينتحر؛ لتخلي خطيبته عنه، وبعضهم بسبب رسوبه في الامتحان، وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذي يحبه، أو الشخص الذي يعجبه، أو بسبب هزيمة الفريق الذي يميل إليه، وهكذا...

وقد يكون الانتحار جماعياً، والعجيب في الأمر أن أغلبية المنتحرين ليسوا من طبقة الفقراء حتى يقال: انتَحَروا؛ لضيق المعيشة.

بل إنهم من الطبقة الغنية المغرقة في النعيم، بل ويقع الانتحار من المشاهير، بل ومن الأطباء النفسيين الذي يُظَنُّ أنهم يجلبون السعادة، ويحلون المشكلات!

٦_ **محاربة اليأس**: فالذي لا يؤمن بالقدر يصيبه اليأس ويدِبُّ إلى روعه القنوط؛ فإذا أصيب ببلية ظن أنها قاصمة ظهره، وإذا نزلت به نازلة حسب أنها ضرب لازب لن تبارحه.

وكذلك إذا رأى ما عليه الباطل من صولة وجولة، وما عليه أهل الحق من ضعف وتخاذل ظن أن الباطل سيستمر، وأن الحق سيضمحل؛ فاليأس سمٌّ قاتل، وسجن مظلم، يُعَبِّسُ الوجه، ويصد النفس عن الخير، ولا يزال بالإنسان حتى يهلكه أو ينغص عليه حياته.

أما المؤمن بالقدر فلا يعرف اليأس، ولا تراه متفائلاً في جميع أحواله، منتظراً الفرج من ربه، عالماً بأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسراً.

وتراه موقناً تمام اليقين بأن العاقبة للتقوى، وللمتقين، وأن قَدَرَ الله في ذلك نافذ لا محالة، فلا يتسلل إليه اليأس مهما احلولكت ظلمة الباطل؛ فاعتماد القلب على قدرة الله، ولطفه،

وكرمه يستأصل جراثيم اليأس، ومنابت الكسل، ويشد ظهر الأمل الذي يَلجُ به الساعي أغوار البحار العميقة، ويقارع به السباعَ الضارية في فلواتها.

٧_ **الرضا**: فالمؤمنُ بالقدر قد تَسمُو بهِ الحال فيصل إلى منزلة الرضا، فمن رضي عن الله رضي الله عنه، بل إن رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه؛ فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضاً قبله أوجب له أن يرضى عنه، ورضاً بعده هو ثمرة رضاه عنه.

ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين، وقرة عيون المشتاقين.

قال ابن القيم رحمه الله: «مَنْ ملأ قلبه من الرضا بالقَدَر ملأ الله صدره غنىً، وأمناً، وقناعةً، وفرَّغ قلبه لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه.

ومن فاته حظه من الرضا امتلأ قلبه بضد ذلك، واشتغل عما فيه سعادته، وفلاحه.»

قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد مقام الرضا؟

فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه؛

فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت.

٨_ **الشكر:** فالمؤمن بالقدر يعلم أن ما به من نعمة فهي من الله وحده، وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونِقْمَة، فيبعثه ذلك إلى إفراد الله بالشكر؛ فإذا نزل به ما يحب شكر الله عليه؛ إذ هو المنعم المتفضل، وإذا نزل به ما يكرهه شكر الله على ما قدره عليه؛ كظماً للغيظ، وستراً للشكوى، ورعاية للأدب، وسلوكاً لمسلك العلم؛ فإن العلم بالله والأدب مع الله يأمران بشكر الله على المحاب والمكاره، وإن كان الشكر على المكاره أشقَّ وأصعبَ؛ ولذلك كان الشكر أعلى من الرضا.

فإذا لزم الإنسان الشكر قرت نِعَمه ودرَّت؛ فالشكر قيد النعم الموجودة، وصيد النعم المفقودة، والله _تبارك وتعالى_ يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم: ٧.

فمتى لم تر حالك في مزيد فاستقبل الشكر.

٩_ **الفرح:** فالمؤمن بالقدر يفرح بهذا الإيمان الذي حرم منه أكثر الخلق، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يونس: ٥٨.

ثم إن المؤمن بالقدر قد يرتقي به الحال من الرضا بقضاء الله والشكر له فيما يُقَدِّره حتى يصل إلى منزلة الفرح، فيفرح بكل ما يقدره الله يقضيه عليه.

١٠ـ **التواضع:** فالإيمان بالقَدَر يحمل صاحبه على التواضع مهما أوتي من قوة، أومال، أو جاه، أو علم أو شهرة، أو نحو ذلك؛ لعلمه بأن ما أوتيه إنما هو بقدر الله، وأنه ـعز وجلـ لو شاء لانتزعه منه.

ومن هنا يتواضع لله ـعز وجلـ ويتواضع لبني جنسه، وينأى بنفسه عن الكبر والخيلاء.

وإذا تواضع الإنسان كَمُل سؤدده، وعلا قدره، وتناهى فضله، وعظم في القلوب وقاره، وزاده الله شرفاً ورفعة؛ فمن تواضع لله رفعه، وإذا رفع الله عبداً فمن ذا الذي سيخفضه؟

وأحسن أخلاق الفتى وأتمها تواضعه للناس وهو رفيع

١١ـ **الكرم والسخاء:** ذلك أن المؤمن بالقدر يعلم علم اليقين بأن الله هو الرزاق، وهو الذي قسم بين الخلق معيشتهم؛ فكل له نصيبه، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، ولن يفتقر أحد إلا بقدر الله ـعز وجلـ.

وهذا الإيمان يشرح صدر صاحبه للإنفاق في وجوه الخير، فيؤثرها بجانب من ماله ولو كان به خصاصة؛ ثقة بالله، واستجابة لأمره ـعز وجلـ بالإنفاق، وشعوراً بأن للحياة الفاضلة مطالبَ يبذل في سبيلها المال غير مأسوف عليه، ولعلمه بأن المال مال الله؛ فَتَعَيَّنَ وَضْعُهُ حيث أمر الله وَضْعَهُ.

ثم إن الإيمان بالقدر يطفئ حِدَّةَ الشَّرَهِ من قلب المؤمن، فلا يتكالب على الدنيا، ولا يريق ماء وجهه طلباً لها، بل يتكرم ويسخو عما في أيدي الناس؛ فمن أنواع السخاء سخاءُ الإنسان عما في أيدي الناس.

١٢ـ الشجاعة والإقدام، واطرح الخور والجبن: فالإيمان بالقدر يملأ قلب صاحبه شجاعةً وإقداماً، ويُفْرِغُه من كل خور وجبن؛ لأن المؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت قبل يومه، ولن يصيبه إلا ما كُتب له، وأن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله له.

ومما ينسب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قوله:

أي يوميَّ مِن الموت أفِرْ   يوم لا يُقْدَرُ أم يوم قدِرْ
يوم لا يقدر لا أرهبه   وإذا قدِّر لا ينجي الحذر

وكان معاوية ﷺ يتمثل بهذين البيتين:

كأنَّ الجبانَ يرى أنه سيقتل قبل انقضاء الأجل
وقد تدرك الحادثات الجبان ويسلم منها الشجاعُ البطل

قال ابن القيم ﷺ: «الذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله؛ فمن سلَّمَ لله، واستسلم له، وعلم أنه ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب له _لم يبقَ لخوف المخلوقين في قلبه موضع؛ فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها، وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كُتِب، وأن ما كتب لها _أيضاً_ لابد أن يصيبها؛ فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

وفي التسليم _أيضاً_ فائدة لطيفة، وهي أنه إذا سلمها لله فقد أودعها عنده، وأحرزها في حرزه، وجعلها تحت كنفه، حيث لا تنالها يدُ عدوٍّ عادٍ، ولا بغيُ باغٍ عاتٍ.»

١٣_ **القناعة وعزة النفس**: فالمؤمن بالقدر يعلم بأن رزقه مكتوب، وأنه لن يموت حتى يستوفيه، وأن الرزق لا يجلبه حرص حريص، ولا يمنعه حَسَدُ حاسدٍ، وأن الخلق مهما حاولوا إيصالَ الرزقِ إليه، أو مَنْعَهُ عنه فلن يستطيعوا إلا

بشيء قد كتبه الله له.

ومن هنا ينبعث إلى القناعة بما أوتي، وإلى عزة النفس والإجمال في الطلب، وإلى التحرر من رق الخلق ومنَّتِهم.

ولا يعني ذلك أن نفسه لا تطمح إلى المعالي، وإنما يعني القناعة بما يأتيه من عرض الدنيا بعد فعل الأسباب، بعيداً عن الشح، والهلع والتكالب، وإراقة ماء الوجه.

وإذا رزق العبد القناعة أشرقة عليه شمس السعادة.

وإن كان بعكس ذلك تنغصت حياته، وازدادت آلامه وحسراته، بسبب نفسه الجشعة الشرهة، ولو مسَّتها القناعة لقلَّت مصائبه؛ لأن الشَّرِهَ سجين المطالب، أسير الشهوات.

ثم إن القناعة تضفي على صاحبها عزة النفس، وتُحْرِزُ له وقاراً في العيون، وجلالة في القلوب، وترفعه من مواضع الذل والمهانة، فيبقى مهيب الجناب، موفور الكرامة، مرفوع الرأس، مرتاح الضمير، سالماً من الهوان، متحرراً من رق الأهواء ومن ذُلِّ الطمع، فلا ينطلق في مجاري التملق والمداهنة، ولا يسير إلا وَفْقَ ما يمليه عليه إيمانه، والحق الذي يحمله.

وبالجملة فالذي يحسم مادة رجاء المخلوقين من القلب هو

الرضا بقسم الله ـعز وجلـ فمن رضي بحكم الله وقسمه لم يبق لرجاء الخلق موضع في قلبه.

ومن جميل ما يذكر في هذا الشأن ما ينسب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو قوله:

أفادتني القناعة كلَّ عزٍّ   وهل عِزٌّ أعزُّ من القناعةْ
فصيرها لنفسِك رأسَ مالٍ   وصيِّرْ بعدها التقوى بضاعةْ
تَحُزْ ربحاً وتَغنى عن بخيلٍ   وتنعم في الجنان بصبر ساعةْ

وقال الشافعي رحمه الله:

رأيت القناعة كنز الغنى   فصرت بأذيالها مُمْتَسك
فلا ذا يراني على بابه   ولا ذا يراني به منهمك
وصرت غنياً بلا درهمٍ   أمُرُّ على الناس شبه الملك

وقال الثعالبي: «ومن أحسن ما سمعت في القناعة قول ابن طباطبا العلوي:

كن بما أوتيته مقتنعاً   تستدِم عسر القنوع المكتفي
إن في نيل المنى وشْكَ الردى   وهلاك المرء في ذا السرف

١٤ـ **علو الهمة**: فعلو الهمة يعني استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور، ودنو الهمة بالعكس من ذلك؛ فهو إيثار

الدَّعة، والرِّضا بالدُّون، والقعود عن معالي الأمور.

والإيمان بالقدر يحمل أهله على علو الهمم، وينأى بهم عن القعود، والإخلاد إلى الأرض، والاستسلام للأقدار.

ولهذا تجد المؤمن بالقدر _حقيقة_ عالي الهمة، كبير النفس، متطلباً للكمالات، مترفعاً عن السفاسف المحقرات، فلا يرضى لنفسه بالدُّون، ولا يقنع بالواقع المرِّ الأليم، ولا يستسلم للمعائب محتجاً بالقدر على وقوعها.

بل إن إيمانه يُحتِّم عليه أن يسعى سعيه للنهوض بنفسه، ولتغيير الواقع المرِّ الأليم إلى الأفضل بالطرق المشروعة وإلى التخلص من المعَائب والنقائص؛ فَالاحْتِجَاج بالقدر إنما يكون عند المصائب لا المعائب.

١٥_ **الحزم والجد في الأمور:** فالمؤمن بالقدر حازم في أموره، منتهز للفرص التي تمر به، حريص على كل خير ديني أو دنيوي؛ إذ الإيمان بالقدر يدعو إلى ذلك؛ فلم يكن داعية إلى البطالة، والإقلال من العمل البتة.

بل لقد كان له عظيم الأثر في إقدام عظماء الرجال على جلائل الأعمال، التي لم يسبق إلى ظنونهم أن استطاعتهم وما

لديهم من الأسباب الحاضرة يَقْصُران عن إدراكها.

قال النبي ﷺ : «احرص على ما ينفعك، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت، كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل.» رواه مسلم

١٦_ **الاعتدال حال السراء والضراء**: فالإيمان بالقدر يحمل على الاعتدال في سائر الأحوال؛ ذلك أن الإنسان في هذا الحياة الدنيا يتقلب في أحوال عديدة؛ فقد يُبْتَلى بالفقر، وقد ينال نصيباً وافراً من الدنيا، وقد ينعم بالصحة، وقد يُبْتَلى بالأمراض، وقد ينال ولايةً وشهرةً وبُعْدَ صيتٍ، وقد يَعْقِبُ ذلك عزلٌ، وذلٌّ، وخمولُ ذكرٍ.

ولهذه الأمور وأمثالها أثرٌ على النفس؛ فالفقر قد يقود إلى الذلة والخنوع، والغنى قد يتغير به الطبع، فلا تبقى الأخلاق على اعتدال، ولا يَقْدُر معه المرء على احتمال.

وكذا الولاية قد تحدث في الأخلاق تغيراً، وعلى الخلطاء تنكُّراً، إما من لؤم طبع، وإما من ضيق صدر.

وفي مقابل ذلك العزلُ، فقد يسوء به الخلق، ويضيق به الصدر؛ إما لشدة أسف، أو لقلة صبر.

وهكذا لا تستقيم الأحوال على حد الاعتدال؛ لأن في العباد قصوراً، وجهلاً، وضعفاً، ونقصاً.

إلا من آمن بالقدر حقيقة؛ فلا تبطره النعمة، ولا تُقَنِّطه المصيبة؛ فلا تطيش به الولاية في زهو، ولا ينزل به العزل في حسرة، ولا يحمله الغنى على الأشر والبطر، ولا ينحط به الفقر إلى الذلة والخضوع.

فالمؤمنون بالقدر حقيقة يتلقون المسارَّ والمحابَّ بقبول لها، وشكر لله عليها، واستعانة بها على أمور الدين والدنيا، فيحصل لهم من جراء ذلك من الخيرات والبركات ما تتضاعف به مسراتهم.

ويتلقون المكاره بالرضا، والاحتساب، والتحمل، والمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكن تخفيفه، وبالصبر الجميل لما لابد لهم منه؛ فيحصل لهم بسبب ذلك خيراتٌ عظيمةٌ تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار والآمال الطيبة.

١٧_ **السلامة من الحسد والاعتراض:** فالإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تفتك بالمجتمعات، وتزرع الأحقاد بينها، وذلك مثل رذيلة الحسد، فالمؤمن بالقدر

لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ لإيمانه بأن الله هو الذي رزقهم وقدر لهم أرزاقهم، فأعطى من شاء، ومنع من شاء، ابتلاءً، وامتحاناً، وبذلك يدرك المؤمن أنه حين يحسد غيره إنما يعترض على قدر الله.

فإذا آمن بالقدر سَلِم من الحسد، وسَلِم من الاعتراض على أحكام الله الشرعية، وأقداره الكونية، وسَلَّم لله في جميع أموره.

١٨_ **العلم بحكمة الله _عز وجل_**: فالإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله _عز وجل_ فيما يقدره من خير أو شر، فيعلم أن وراء تفكيره، وتخيلاته من هو أعظم وأعلم، وأحكم.

ولهذا كثيراً ما يقع الشيء فنكرهه وهو خير لنا؛ وكثيراً ما نرى الشيء مصلحة ظاهرة فنحبه، ونرغب فيه، ولكن الحكمة لا تقتضيه؛ فالمدبر للإنسان أعلم بمصالحه وعاقبة أمره، كيف وقد قال _سبحانه_: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢١٦.

ومن أسرار هذا الآية وحِكَمها أنها تقتضي من العبد التفويضَ إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يقضيه عليه؛ لما يرجوه من حسن عاقبته.

ومن أسرارها ألا يقترح على ربه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته فيه وهو لا يعلم؛ فلا يختار على ربه، بل يسأله حسن العاقبة فيما يختاره له، فلا أنفع له من ذلك.

ولهذا من لطف الله بعبده أنه ربما طمحت نفسه لسبب من الأسباب الدنيوية التي يظن أن بها إدراكَ بغيته، فيعلم الله أنها تضره، وتصده عما ينفعه، فيحول بينه وبينها، فيظل العبد كارهاً، ولم يَدْرِ أن الله قد لطف به؛ حيث أبقى له الأمر النافع، وصرف عنه الأمر الضار.

فكم من الناس ـعلى سبيل المثالـ من يندم ويتحسَّرُ إذا فاته موعد إقلاع الطائرة، وما هي إلا مدة يسيرة، ثم يُعْلن عن سقوط الطائرة، ووفاة جميع ركابها.

وكم من الناس من يتبرم ويضيق صدره؛ لفوت محبوب؛ أو نزول مكروب.

وما إن ينكشف الأمر ويستبين سرُّ القدر إلا وتجده جذلاً

مسروراً؛ لأن العاقبة كانت حميدة بالنسبة له.

وما أجمل قول من قال:

كم نعمةٍ لا تستقل بشكرها   لله في طي المكاره كامنه

وقول الآخر:

تجري الأمور على حكم القضاء وفي
طيِّ الحوادث محبوب ومكروه
وربما سرَّني ما كنت أحذره
وربما ساءني ما كنت أرجوه

١٩ـ **تحرير العقول من الخرافات ولأباطيل**: فمن بدهيات الإيمان بالقدر الإيمان بأن ما جرى وما يجري، وما سيجري في هذا الكون إنما هو بقدر الله ـعز وجلـ وأن قدر الله سرٌّ مكتومٌ، لا يعلمه إلا هو، ولا يُطْلِع عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول؛ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً.

ومن هذا المنطلق تجد المؤمن بالقدر لا يعتمد على الدجالين والمشعوذين، ولا يذهب إلى الكهان والمنجمين والعرافين؛ فلا يعتد بأقوالهم، ولا ينطلي عليه زيفهم ودجلهم؛ فيعيش سالماً من زيف هذه الأقاويل متحرراً من جميع تلك الخرافات

والأباطيل.

٢٠_ سكون القلب وطمأنينة النفس، وراحة البال:

فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقدر، وهي داخلة في كثير مما مضى ذكره من الثمرات، وهي مطلبٌ مُلِحٌّ، وهدف منشود وغاية مُبْتَغاةٌ؛ فكل ما في الأرض يبتغيها، ويبحث عنها، ويسعى لها سعيها، ولكن كما قيل:

كل من في الوجود يطلب صيداً
غير أن الشباك مختلفاتُ

فلا يدرك هذه الأمور، ولا يجد حلاوتها، ولا يعلم ثمرتها_ إلا من آمن بالله وقضائه وقدره؛ فالمؤمن بالقدر ساكن القلب، مطمئن النفس، مرتاح البال، لا يفكر كثيراً في احتمال الشر، ثم إن وقع لم يَطِرْ له قَلْبه شَعَاعاً، بل يحتمل ذلك بثبات وصبر؛ إنْ مرضَ لم يُضَاعف مرضه بوهمه، وإن نزل به مكروه قابله بجأش رابط فخفف حِدَّته؛ فمن الحكمة ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحصول الشر.

بل يسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت

قابلها بشجاعة واعتدال.

وإنك لتجد عند خواصِّ المسلمين من العلماء العاملين والعباد القانتين المتبعين من سكون القلب وطمأنينة النفس ما لا يخطر ببال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال؛ فلهم في ذلك الشأن القِدْحُ المعلى، والنصيب الأوفى.

فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز ـرحمه الله ورضي عنهـ يقول: «أصبحت وما لي سرور إلا في القضاء والقدر.»

وهذا شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.»

ويقول مقولته المشهورة عندما زجَّ به في السجن: «ما يصنع أعدائي بي؛ أنا جنتي وبستاني في صدري؛ أين رُحْت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.»

بل إنك واجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار المفكرين والكتاب الأطباء من غير المسلمين؛ فكم من الأطباء من غير

المسلمين _على سبيل المثال_ من يعجب، ويذهب به العجب كل مذهب إذا هو أشرف على علاج مريض مسلم، وتبين له انه مصاب بداء خطير _كالسرطان مثلاً_ فتراه يقدِّم رجلاً ويؤخر أخرى، وتجده يمهد الطريق، ويضع المقدمات، كل ذلك خشيةً من شدة تأثر المريض بسماع هذا الخبر.

وما إن يُعلِمهُ بمرضه، ويصارحه بعلته _إلا يفاجأ بأن هذا المريض يستقبل الخبر بنفس راضية، وصدر رحب، وسكينة عجيبة.

لقد أدهش كثيراً من غير المسلمين إيمان المسلمين بالقضاء والقدر، فكتبوا في هذا الشأن معبرين عن دهشتهم، مسجلين شهاداتهم بقوة عزائم المسلمين، وكبر نفوسهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة.

فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله، وبقضائه وقدره.

وما منعهم من ذلك إلا إعراضهم عن ربهم، وبعدهم عن الدين الحق، ألا وهو الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، وختم به الأديان السماوية.

أولاً: الإسلام والإيمان معناهما والعلاقة بينهما

أولاً: مفهوم الإسلام

أـ الإسلام لغة: هو الاستسلام، والانقياد، وإظهار الخضوع، والقبول[1].

ب ـ الإسلام في الشرع: هو استسلام العبد لله ظاهراً وباطناً، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

أو: هو إظهار الخضوع لله، وإظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبي"[2].

وعلى هذا يكون الإسلام شاملاً للدين كله، قال الله تعالى: [وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً] المائدة:٣، وقال ـعز وجلـ: [إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسلام] آل عمران:١٩، وقال: [وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ]آل عمران: ٨٥.[3]

ثانياً: مفهوم الإيمان

أـ الإيمان في اللغة: للإيمان في لغة العرب استعمالان:

أحدهما: أن يتعدى لفظ الإيمان بنفسه؛ فيكون بمعنى التأمين، أي إعطاء الأمان، وآمنته: ضد أخفته.

ومنه قوله تعالى: [وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ] قريش:٤.

والثاني: أن يتعدى بالباء؛

فقيل معناه: التصديق، كما في قوله ـتعالىـ: [وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا] يوسف:١٧، أي بمصدق[4].

وقيل معناه: الإقرار، لأن التصديق يختلف عن الإيمان لفظاً ومعنى:

فأما اللفظ فمن وجهين:

١- أن الإيمان لا يتعدى بنفسه بل باللام بخلاف التصديق فهو يتعدى بنفسه، وأما الإقرار فهو كالإيمان لا يتعدى بنفسه بل باللام.

٢- أن الإيمان لا يستعمل إلا في الإخبار عن الأمور الغائبة وليس في جميع الأخبار بخلاف التصديق.

---

[1] انظر لسان العرب لابن منظور ١٢/٢٩٣ـ٢٩٤.

[2] انظر لسان العرب ١٢/٢٩٣.

[3] انظر فتح البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد بن عثيمين ص٩٤.

[4] انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/٦٩-٧١، ونواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف د. محمد الوهيبي ١/٣١-٣٤.

وأما من حيث المعنى:

فالإيمان ليس مرادفاً للتصديق لأن من شرط الترادف أن يكون معاكسهما واحداً، وعكس التصديق التكذيب، وأما الإيمان فعكسه الكفر وقد يكون تكذيباً أو جحوداً أو استكباراً أو غيره.

ومما يدل على أنهما يختلفان في المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك)) فقال: ((إيمانا بك)) ولم يقل: تصديقاً بك، كما قال ((تصديقاً بكتابك)).

ولو سلمنا أن الإيمان بمعنى التصديق فالأفعال تسمى تصديقاً كما ثبت في الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((العينان تزنيان وزناهما النظر والأذن تزنى وزناها السمع واليد تزنى وزناها البطش والرجل تزنى وزناها المشى والقلب يتمنى ذلك ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه))، وقال الحسن البصرى: (ليس الايمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال)

ب_ الإيمان في الشرع: ذهب عامة أهل السنة إلى أن الإيمان الشرعي:

١- اعتقاد، وقول، وعمل.

٢- وبعضهم يقول: قول، وعمل.

٣- وبعضهم يقول: قول، وعمل، ونية.

٤- وبعضهم يقول: قول، وعمل، وعقيدة.

٥- وقال بعضهم: هو التصديق بالقلب، والعمل بالأركان.

والنصوص عن الأئمة كثيرة جداً في قولهم: إن الإيمان قول وعمل.

وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم كابن عبد البر في كتابه التمهيد.[٥]

هل هناك فرق بين تلك الأقوال؟

ولا فرق بين تلك الأقوال السابقة؛ فكل ذلك من باب اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد؛ فمن قال من السلف: إن الإيمان قول وعمل أراد قولَ القلبِ (الاعتقاد) واللسانِ، وعملَ القلبِ (النية) والجوارِحِ.

ومن زاد الاعتقاد رأى أن لَفْظَ القولِ لا يُفْهَمُ منه إلا القولُ الظاهر، أو خَشِيَ ذلك؛ فزاد الاعتقاد بالقلب.

ومن قال: قول وعمل ونية، أراد أن القول يتناول الاعتقادَ (قول القلب) وقولَ اللسان.

وأما العمل فقد لا يفهم منه النية التي هي عمل القلب؛ فزاد ذلك.[٦]

---

[٥] انظر التمهيد لابن عبدالبر ٢٣٨/٩، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٠٨/٧ و٤٧٢/١٢، وانظر تفسير ابن كثير ٣٩/١، وفتح الباري لابن حجر ٤٧/١، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٨٣٢/٤.

[٦] انظر نواقض الإيمان الاعتقادية ٣٦/١.

وخلاصة ما سبق من حقيقة الإيمان الشرعي: **أنها حقيقة مركبة من قول، وعمل.**

والقول قسمان: قول القلب: وهو إقراره، واعتقاده.

وقول اللسان: وهو التكلم بكلمة الإسلام، أي النطق بالشهادتين، والإقرار بلوازمهما.

والعمل قسمان: عمل القلب: وهو نيتُه وإخلاصه، ومحبته، وانقياده، ونحوها من القربات التي هي من عمل القلب، كالخشية، والإنابة، والخشوع، والتوكل، والمحبة، والخوف، والرجاء.

وعمل اللسان والجوارح: وذلك كثير جداً؛ فعمل اللسان هو سائر القربات التي لا تؤدى إلا به كتلاوة القرآن، وسائر الأذكار، ونحو ذلك مما طريقه اللسان.

وعمل الجوارح: هو مما لا يُؤَّدى إلا بها كالقيام، والركوع، والسجود، والمشي إلى مراضي الله كالخطا إلى المساجد، وإلى الحج، ونحو ذلك.[٧]

وبهذا يتبين لنا: أن الإيمان اسم جامع لعقائد القلب، وأعماله، وأعمال الجوارح، وأقوال اللسان؛ فجميع الدين أصوله، وفروعه داخل في الإيمان.

فهذا هو الإيمان الشرعي عند السلف؛ فهو شامل للعقائد، وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح.

وفي هذا من النصوص ما لا يعد ولا يحصى.[٨]

ومن أجلى الأدلة على ذلك ما جاء في حديث جبريل المشهور، قال النبي ((الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره)) [٩]

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث الشعب: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان))[١٠]

فالإيمان بالله وملائكته.....: اعتقاد القلب.

وقول لا إله إلا الله: قول اللسان.

وإماطة الأذى عن الطريق: عمل الجوارح.

والحياء: عمل القلب.

بل إن تعريف الإيمان يمكن تنزيله على جميع الأعمال الصالحة.

ومن الأمثلة على ذلك: الصلاة؛ فالصلاة تشتمل على قول القلب من جهة أن المؤمن يُقِرُّ بقلبه بوجوبها

---

[٧] انظر الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص٥٤.

[٨] انظر توضيح الكافية الشافية لابن سعدي ص٨، والفتاوى السعدية ص١٧.

[٩] أخرجه مسلم (٨).

[١٠] أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

وفرضيتها.

وتشتمل على قول اللسان من جهة أن المؤمن يقول ذلك بلسانه؛ بحيث لو سئل لقال بوجوبها.

وتشتمل على عمل القلب من جهة أن المؤمن يؤدي الصلاة بنية، وإخلاص وخشوع، ومحبة لله، ورغبة فيما عنده، وخوفاً من عقابه _عز وجل_.

وتشتمل على عمل اللسان من جهة أن المصلي يؤدي بلسانه جميع أقوال الصلاة من أذكار، وتلاوة، وأدعية.

وتشتمل على عمل الجوارح من جهة أن المصلي يقوم، ويقعد، ويركع ويسجد، ويحرك سائر جوارحه في الصلاة.

وهكذا انطبق تعريف الإيمان على الصلاة؛ ولهذا سميت إيماناً كما قال الله _عز وجل_: [وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ] البقرة:١٤٣.

أي صلاتكم إلى بيت المقدس.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً كالصيام، والحج، وسائر القربات؛ حيث يمكن تنزيلُ تعريف الإيمان عليها.

ثانياً: العلاقة بين الإسلام والإيمان

من خلال ما مضى يتبين لنا أن الإسلام يشمل الدين كله، والإيمان يشمل الدين كله، وذلك حينما ينفرد أحدهما عن الآخر، أما إذا اقترن أحدهما بالآخر **فإن الإسلام يفسر بالاستسلام الظاهر** الذي هو قول اللسان، وعمل الجوارح، ويَصْدُرُ من المؤمن كامل الإيمان، وضعيف الإيمان.

قال الله ـتعالىـ: [قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] الحجرات:١٤ .

ويصدر ـ كذلك ـ من المنافق لكن يُسمّى مسلماً ظاهراً، ولكنه كافر باطناً.

ويفسر الإيمان بالاستسلام الباطن الذي هو إقرار القلب، وعمله، ولا يصدر إلا من المؤمن حقًّا، كما قال ـتعالىـ: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣)] الأنفال.

وبهذا المعنى يكون الإيمان أعلى، فكل مؤمن مسلم؛ ولا عكس.[١]

وبالجملة فإن الإسلام والإيمان إذا أطلق أحدهما شمل الدين كلَّه أصولَه وفروعَه من اعتقاداتِه، وأقوالِه، وأفعالِه؛ فيكونان بهذا الاعتبار مترادفين يدل أحدُهما على الآخر.

أما إذا قُرِنَ بينهما، وذُكِرا معاً في سياق واحد فإنهما بهذا الاعتبار يفترقان، ويكونا متباينين؛ فيراد بالإسلامِ حينئذٍ الأعمالُ والأقوالُ الظاهرةُ، ويراد بالإيمانِ الاعتقاداتُ.

ومن تأمل النصوصَ الواردة في ذلك تبين له هذه العلاقةُ بين الإسلام والإيمان كما في النصوص التي مرت، وكما في قوله ـتعالىـ:[إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ] الأحزاب:٣٥.

وكما في حديث جبريل ـعليه السلامـ الذي رواه عمر ((ما الإسلام، وما الإيمان)).

---

[١] انظر فتح رب البرية ص٩٤ـ٩٥.

ثالثاً: زيادة الإيمان ونقصانه

من أصول أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة.

فمن أدلة الكتاب، قوله ـ تعالى ـ: [لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ] الفتح:٤.

ومن أدلة السنة، قوله صلى الله عليه وسلم في النساء: ((ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن))[١].

ففي الآية إثبات زيادة الإيمان، وفي الحديث إثبات نقص الدين.

وكلُّ نصٍّ يدل على زيادة الإيمان فإنه يتضمن الدلالة على نقصه، وبالعكس؛ لأن الزيادة والنقص متلازمان، لا يُعْقَل أحدهما دون الآخر.[٢]

ومن الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه قوله ـ تعالى ـ: [وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ] التوبة.

وقال تعالى: [وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى] مريم:٧٦: وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه كما قال السلف الصالح.

ويدل عليه قوله تعالى [وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً] المدثر:٣١، [وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً] الأنفال:٢.

ويدل عليه ـ أيضاً ـ الواقع؛ فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت

وقد ثبت لفظ الزيادة والنقص في الإيمان عن الصحابة، ولم يعرف منهم مخالف فيه، وجمهور السلف على ذلك.

قال الإمام البخاري: (لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار؛ فما رأيت أحداً يختلف في أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص) [٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤) و(١٤٦٢) و(٨٠).

(٢) انظر فتح رب البرية ص٩٦.

(٣) ذكره الحافظ في الفتح ٤٧/١، وانظر إلى معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي ١١٧٧/٣ـ١١٨٠، وزيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه للشيخ الدكتور عبدالرزاق البدر ص١٢٣ ـ ١٤٩ حيث أورد نقولاً كثيرة عن السلف في هذا السياق، والكتاب المذكور يكاد يكون أحسن ما كتب في بابه.

وانظر كذلك إلى كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية ٨٢/١ـ٩٣.

الكبائر والصغائر

أولاً: تقسيم الذنوب

الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، والدليل على هذا:

قوله تعالى: [إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً] النساء:٣١، وقال تعالى: [الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ] النجم:٣٢.

وقال ﷺ: ((**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر**)) وفي لفظ آخر: ((**كفارات لما بينهن إلا الكبائر**))(١).

وقد قال فيما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ((**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**))(٢)(٣).

وقال ابن القيم: "وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائرَ وصغائر"(٤).

ثانياً: حقيقة الصغائر والكبائر

أ- الاختلاف في عددها:

اخْتُلِفَ في تحديد الكبائر وحصرها؛ فقيل في ذلك أقوال منها(٥):

١_ قال عبدالله بن مسعود: هي أربع.

٢_ وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: هي سبع.

٣. _ وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: هي تسع.

٤_ وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر: الكبائر سبع يقول: هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع.

٥ _ وقال آخر: هي إحدى عشرة.

ب- الاختلاف في تعريفها:

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

(٢) رواه البخاري (٦٦٥٦) .

(٣) إحياء علوم الدين ٤/١٧.

(٤) الجواب الكافي ص٣٠٦.

(٥) انظر إحياء علوم الدين ٤/١٧_١٨، والجواب الكافي ٣٠٨_٣٠٩.

من لم يذكر عدداً معيناً لها ذكر ضوابط أو تعريف يمكن به تمييز الكبيرة عن الصغيرة وقد اختلفوا:

١ــ أن ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن، أو غضب، أو عقوبة ــ فهو كبيرة، وما لم يقترن به شيء فهو صغيرة.

٢ــ وقيل: كل ما ترتب عليه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة ــ فهو كبيرة، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة (٦).

٣ ــ وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

٤ــ وقيل: كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة.

٥ــ وقيل: هي كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله: [إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ] النساء: ٣١.

ثالثاً: تكفير الأعمال الصالحة للصغائر والكبائر

هل الحسنات والأعمال الصالحة تكفر الصغائر والكبائر على حد سواء، أَوْ لا بد في الكبائر من التوبة؟

القول الأول: لا تكفِّر الحسنات سوى الصغائر، وقد روي عن سلمان الفارسي ﷺ وعطاء، وغيره من السلف في الوضوء أنه يكفر الصغائر، والصلاة تكفر أكبر من ذلك.

وأما الكبائر فلا بد لها من التوبة؛ لأن الله أمر العباد بالتوبة، ولو كانت الكبائر تقع مكفرة بالوضوء، والصلاة، وأداء بقية أركان الإسلام ــ لم يحتج إلى التوبة، وهذا باطل بالإجماع+(٧).

القول الثاني: ذهب قوم من أهل الحديث إلى أن هذه الأعمال تكفر الكبائر، ومنهم ابن حزم الظاهري، والصحيح قول الجمهور: إن الكبائر لا تكفَّر بدون التوبة؛ لأن التوبة فرض على العباد+(٨).

ورجح شيخ الإسلام ابن تيمية أن الحسنات الماحية تكفر الكبائر بدون التوبة.

وأجاب عما استدل به أصحاب القول الأول من حديث: ((ما اجتنبت الكبائر)) فيجاب عن هذا

---

(٦) وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٦٥٠/١١، وقال في ٦٥٠/١١: "إنه أمثل الأقوال في هذه المسألة"، وقال في ٦٥٤/١١: "وإنما قلنا: إن هذا الضابط أولى من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه . . ." ثم ذكر خمسة وجوه.

(٧) جامع العلوم ١/ ٤٢٥ــ٤٢٦.

(٨) جامع العلوم والحكم ٤٢٩/١

بوجوه: (٩)

ومن الوجوه التي أيَّد بها كلامه ما يلي:

أحدهما: أن هذا الشرط ــيعني ما اجتنبت الكبائرــ جاء في الفرائض، كالصلوات الخمس، والجمعة، وصيام رمضان، وذلك أن الله ــتعالىــ يقول: [إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ] النساء: ٣١.

فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات، وأما الأعمال الزائدة من التطوعات فلا بد أن يكون لها ثواب آخر؛ فإن الله ــسبحانهــ يقول: [فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ(٨)] الزلزلة.

الثاني: أنه قد جاء التصريح في كثير من الأحاديث بأن المغفرة قد تكون مع الكبائر، كما في قوله ﷺ: ((غفر له وإن كان فر من الزحف)).

وفي السنن: ((أتينا رسول الله في صاحب لنا قد أوجب، فقال: **أعتقوا عنه يعتقِ الله عنه بكل عضو عضواً من النار**))، وفي الصحيحين من حديث أبي ذر: ((**أتاني آت من ربي فأخبرني أو قال بشرني أنه من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق**)).

الثالث: أن قوله لأهل بدر ونحوهم: ((**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**)) إن حُمِل على الصغائر، أو على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم؛ فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر؛ لما قد عُلِمَ أن الكفر لا يغفر إلا بالتوبة لا يجوز حمله على الصغائر المُكَفَّرةِ باجتناب الكبائر.

ثم ذكر أوجه أخرى.

---

(٩) مجموع الفتاوى ٤٨٩/٧.

رابعاً: المخالفون في باب الإيمان

أشهر من خالف في باب الإيمان طائفتان:

الأولى: الوعيدية من الخوارج[1] **والمعتزلة**[2]، الذين أخرجوا أهل الكبائر من الإيمان، وقالوا: إن الإيمان إما أن يوجد كله، وإما أن يعدم كله، ومنعوا من تفاضله[3].

الثانية: المرجئة[4] **الخالصة** الذين يقولون: إن الإيمان إقرار القلب، وزعموا أن إقرار القلب لا يتفاوت؛ فالفاسق والعدل عندهم سواء في الإيمان.

فالوعيدية والمرجئة يرون أن الإيمان حقيقة واحدة، إما أن يوجد كله، أو أن يذهب كله.

ولكنهم اختلفوا في كيفية وجوده وعدمه؛ **فالوعيدية** يرون أنه لا بد في الإيمان من الإتيان بجميع الواجبات، وترك جميع المحرمات؛ فإذا تخلف شيء من ذلك ذهب الإيمان.

والمرجئة يرون أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

---

(1) الخوارج: فرقة ظهرت في عهد علي بن أبي طالب ÷ عام ٣٧هـ، حيث اعترضوا على قبول التحكيم مع أنهم هم الذين أكرهوا عليّاً على قبوله عندما رفع أصحاب معاوية ÷ المصاحف.

ولمَّا ذكَّرهم بإكراههم له، قالوا: =ولكنَّ ذلك كان منَّا كفراً؛ فقد تبنا إلى الله _عز وجل_ منه؛ فتب كما تبنا نبايعْك+.

ثم بعد ذلك خرجوا عن جماعة المسلمين، وصاروا يكفِّرون بالكبائر ولو كانت دون الشرك.

وكانت مقالتهم أول مقالة فرَّقت الأمة. انظر الملل والنحل للشهرستاني ١١٤/١، والمقالات ٥٦/١، وتاريخ الطبري ٥٧/١ و٦٦ و٧٢.

(2) المعتزلة: فرقة نشأت ما بين سنة ١٠٥هـ _ ١١٠هـ، حين انفصل واصل بن عطاء عن الحسن البصري، حين خالف الحسنَ في حكم مرتكب الكبيرة، وزعم أنه في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، فسُمِّي هو ومن تابعه المعتزلة؛ لاعتزالِهم الحسنَ، وقولِ الأمة في حكم مرتكب الكبيرة، وزعمِهم أن صاحب الكبيرة قد اعتزل الكافرين والمؤمنين. انظر الفرق بين الفرق ص٢٠_٢١، والمعتزلة وأصولهم الخمسة، وموقف أهل السنة منها، د. عواد بن عبدالله المعتق ص٢٨٣.

(3) انظر فتح رب البرية ص٩٧.

(4) المرجئة: سُمُّوا بذلك من الإرجاء، وهو تأخير العمل عن مسمى الإيمان، وأول ما ظهر الإرجاء إنما كان ردَّ فعل للخوارج عندما كفَّروا الحكمين، وعليَّ بن أبي طالب.

= وأول من تكلم في الإرجاء: الحسن بن محمد بن الحنفية المتوفى عام ٩٩، وقد ذكر ذلك كلُّ مَنْ ترجم له، وكان × يقول: =لوددت أني كنت مِتُّ، ولم أكتبه+.

وهو محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد اشتهر بالنسبة إلى أمه، وهي من بني حنيفة، وكان من أعلم الناس بالاختلاف، وكان من أوثق الناس. انظر طبقات ابن سعد ٣٢٨/٥، والفَرْق بين الفِرَق للبغدادي ٢٠٢، والتهذيب لابن حجر ٣٢٠/٢.

فقالت الخوارج: المُصِرُّ على كبيرة من زناً، أو شربِ خمرٍ، أو رباً _ كافرٌ مرتدٌ، خارجٌ من الدين بالكلية لا يُصَلَّى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، ولو أقر لله _تعالى_ بالتوحيد وللرسول"بالبلاغ، وصلى، وصام، وزكى، وحجَّ، وجاهد.

وهو مخلد في النار أبداً مع إبليس وجنوده، ومع فرعون وهامان وقارون

وقالت المعتزلة: العصاةُ ليسوا مؤمنين ولا كافرين، ولكن نُسمِّيهم فاسقين؛ فجعلوا الفِسْقَ منزلةً بين المنزلتين، ولكنهم لم يحكموا به بمنزلة في الآخرة بين المنزلتين، بل قضوا بتخليده في النار أبدا كاالذين قبلهم فوافقوا الخوارج مآلاً وخالفوهم مقالاً وكان الكلُّ مخطئين ضلالاً(٥).

وقالت المرجئة: لا تضر المعاصي مع الإيمان لا بنقصٍ، ولا منافاةٍ، ولا يدخل النار أحدٌ بذنب دون الكفر بالكلية، ولا تفاضل عندهم بين إيمان الفاسق الموحد وبين إيمان أبي بكر وعمر، حتى ولا تفاضل بينهم وبين الملائكة، لا ولا فرق عندهم بين المؤمنين والمنافقين؛ إذ الكل مستوفي النطقِ بالشهادتين(٦).

فهذه هي خلاصة مذاهب المخالفين في باب الإيمان من الوعيدية، والمرجئة.

أما أهل السنة فيرون _كما مر_ أن الإيمان حقيقة مركبة؛ فليس كل ذنب يذهب بالإيمان؛ بل هناك من الذنوب ما يُذْهِبُ أصلَ الإيمان، وهناك ما يُذْهِبُ كمالَهُ الواجب، وهناك ما يُذْهِبُ كمالَه المستحبَّ.

وكل من هاتين الطائفتين محجوج بالسمع والعقل.

أما السمع فقد تقدّم في النصوص ما دل على إثبات زيادة الإيمان ونقصه.

وأما العقل فنقول للمرجئة: قولكم: إن الإيمان هو إقرار القلب، وإقرار القلب لا يتفاوت، ممنوع في المقدمتين جميعاً.

أما المقدمة الأولى: فتخصيصكم الإيمان بإقرار القلب مخالف لما دلّ عليه الكتاب والسنة من دخول القول والعمل في الإيمان.

---

(٥) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد للشيخ حافظ الحكمي ١١٩٣/٣_١١٩٤.

(٦) معارج القبول ١١٩٤/٣.

وأما المقدمة الثانية: فقولكم: إن إقرار القلب لا يتفاوت مخالف للحس؛ فإن خبر الواحد لا يفيد ما يفيده خبرُ الاثنين وهكذا، وما أدركه الإنسانُ بالخبر لا يساوي في العلم ما أدركه بالمشاهدة؛ فاليقين درجاتٌ متفاوتةٌ، وتفاوتُ الناس في اليقين أمرٌ معلومٌ.

وكيف يصح لعاقل أن يحكم بتساوي رجلين في الإيمان **أحدهما:** مثابر على طاعة الله تعالى فرضها ونفلها، متباعد عن محارم الله، وإذا بدرت منه المعصية بادر إلى الإقلاع عنها والتوبة منها.

والثاني: مُضيّع لما أوجب الله عليه، ومنهمك فيما حرّم الله عليه، غير أنه لم يأت ما يكفره، كيف يتساوى هذا وهذا؟!

وأما الوعيدية ، فنقول لهم: قولكم: إن فاعل الكبيرة خارج من الإيمان مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة، فإذا تبين ذلك فكيف نحكم بتساوي رجلين في الإيمان؟ **أحدهما:** مقتصد فاعل للواجبات، تارك للمحرّمات.

والثاني: ظالم لنفسه يفعل ما حرم الله عليه، ويترك ما أوجب الله عليه من غير أن يفعل ما يكفر به؟!

ونقول ثانياً: هب أننا أخرجنا فاعل الكبيرة من الإيمان، فكيف يمكن أن نحكم على رجلين بتساويهما في الإيمان وأحدهما مقتصد، والآخر سابق بالخيرات بإذن الله؟!.(٧)

---

(٧) فتح رب البرية ٩٧_٩٨.

مفهوم الكفر وأنواعه

أولاً: مفهوم الكفر

أ- تعريف الكفر في اللغة:

الكاف، والفاء، والراء (كفر) أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية، ويسمى الليل كافراً لتغطيته كل شيء، وسمي الفَلاَّحُ كافراً لتغطيته الحب في الأرض، ومن ذلك الكفارة؛ لتغطيتها الإثم.

والكفر ضد الإيمان، سُمِّي؛ لأنه تغطية الحق، وستره.

وسمي الكافر كافراً؛ لأنه ستر آيات الله، وغطى دلائل التوحيد والإيمان بجحده، وعناده.[١]

ب-الكفر في اصطلاح الشرع:

تنوعت عبارات العلماء في تعريف الكفر في الشرع، وفيما يلي إيراد لبعض تلك التعريفات:

١ــ يقول ابن تيمية "الكفر عدم الإيمان باتفاق المسلمين سواء اعتقد نقيضه وتكلم به، أو لم يعتقد شيئاً ولم يتكلم به"[٢]، وقال: "الكفر عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب، أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب، أو إعراض عن هذا كله حسداً، أو كبراً، أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة"[٣].

٣ ــ قال ابن حزم : "صفة مَنْ جَحَدَ شيئاً مما افترض الله ــتعالىــ الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه بقلبه دون لسانه، وبلسانه دون قلبه، أو بهما معاً، أو عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان"[٤].

٤ــ وعرفه الشيخ عبدالرحمن السعدي بقوله: "وحد الكفر الجامع لجميع أجناسه، وأنواعه وأفراده هو جحد ما جاء به الرسول، أو جحد بعضه"[٥].

ومن خلال ما مضى يمكن أن يعرف الكفر الذي لا يجامع الإيمان بأنه: **اعتقادات، وأقوال، وأفعال حكم الشارع بأنها تناقض الإيمان وهو على شعب، ومراتب متفاوتة.**[٦]

---

[١] انظر معجم مقاييس اللغة ١٩١/٥ــ١٩٢، ولسان العرب ١٤٤/٥ــ١٤٧، والمفردات للأصفهاني ص٦٥٣ــ٦٥٥.

[٢] مجموع الفتاوى ٨٦/٢٠.

[٣] مجموع الفتاوى ٣٣٥/١٢.

[٤] الأحكام ٤٥/١.

[٥] الإرشاد إلى معرفة الأحكام ص٢٠٣ــ٢٠٤.

[٦] انظر نواقض الإيمان القولية والفعلية ص٤٦.

ثانياً: أنواع الكفر

الكفر شعب متعددة، وله مراتب كثيرة، ويمكن إرجاعها إلى نوعين:

١ـ كفر أكبر: وهو المخرج من الملة، وهو ما ارتكب صاحبه ما يوجب خروجه من الدين كالتكذيب لله، ورسوله.

٢ـ كفر أصغر: وهو غير مخرج من الملة، كالاقتتال بين المسلمين، والنياحة، والتبرؤ من النسب.

وإذا تقرر هذا فلا يلزم مَنْ قام به شعبة من شعب الكفر أن يصير كافراً الكُفْرَ المطلقَ، حتى تقوم به حقيقة الكفر.

كما أنه لا يلزم مَنْ قام به شعبة من شعب الإيمان أن يصير مؤمناً حتى يقوم به أصل الإيمان.[٧]

يقول ابن تيمية: "فرق بين الكفر المُعَرَّف باللام كما في قوله: ((ليس بين العبد وبين الكفر والشرك إلا ترك الصلاة))"[٨].

وبين كُفْرٍ مُنَكَّرٍ في الإثبات.

وفرق ــأيضاًــ بين معنى الاسم المطلق إذا قيل كافر، أو مؤمن، وبين المعنى المطلق للاسم في جميع موارده كما في قوله: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض))[٩].

فقوله: ((يضرب بعضكم رقاب بعض)): تفسير الكفار في هذا الموضع، وهؤلاء يسمون كفاراً تسمية مقيدة، ولا يدخلون في الاسم المطلق إذا قيل: كافر، مؤمن"[١٠].

---

[٧] انظر اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ٢٠٨/١، وكتاب الصلاة لابن القيم ص٦٠، ونواقض الإيمان القولية والعملية ص٤٦.

[٨] رواه مسلم (٨٢) بلفظ: =إن بين الرجل وبين الشرك والكفر تركَ الصلاة+ وبلفظ: =بين الرجل...+.

[٩] أخرجه البخاري (٧٠٧٦) ومسلم (١٦ و٦٤)

[١٠] اقتضاء الصراط المستقيم ٢٠٨/١ــ٢٠٩.